الفصل الثانى

الدولة العباسية فى العصر العباسى الثانى

﴿عصر نفوذ الأتراك﴾

٢٣٢ - ٣٣٤هـ/ ٨٤٧ - ٩٤٦م

١ - المعتصم والأتراك.

٢ - سيطرة الأتراك على الخلافة.

٣ - عصر نهضة الخلافة.

٤ - عودة نفوذ الأتراك.

٥ - عصر إمرة الأمراء.

٦ - الثورات الاجتماعية ضد الدولة العباسية.

ضعف الخلافة العباسية

١ - المعتصم والأتراك:

كان العرب هم سناد دولة بنى أمية وعصبيتها، وهم الذين قاموا بها وأعانوها، حتى سقوطها فى سنة ١٣٢/ ٧٥٠.

وكان الفرس سناد دولة بن العباس وعصبيتها، وهم الذين قاموا بها وأعانوها، حتى نهاية عهد الواثق سنة ٢٣٢/ ٨٤٧.

على أن ساسة العباسيين فى إثار الفرس، أدت إلى هياج العرب عليهم من ناحية، وإلى محاولة الفرس السيطرة على الدولة نفسها، أو إزالتها وإعادة ملكهم القديم من ناحية أخرى.

حينئذ بدأ بنو العباس يفكرون فى الاعتماد على عصبية أخرى غير العرب وغير الفرس، كان الأتراك أحد الشعوب التى لعبت دورا هاما ولا يزال فى حياة الدولة الإسلامية، وقد عاشوا فى مواطنهم الأصلية ببلاد ما وراء النهر وما يليها حتى تخوم الصين بدورا رحل، ينتجعون موارد المياه، ويمارسون حياة تشابه من وجوده عديدة حياة العرب فى الجاهلية.

اصطدم المسلمون بالترك حين امتدت فتوحهم امتدادا واسعا فى الشرق على يدى القائد الكبير قتيبه بن مسلم، الذى راعته شجاعة الترك، وصبرهم على القتال واخذ المسلمون يستميلونهم إلى دينهم ويستقدمونهم إلى حواضرهم كغلمان يخدمون فى بيوتهم، وجوار يسترون بهم.

توسع بنو العباس فى هذه السياسة، بعد أن استقرت حدود المسلمين فى بلاد ما وراء بلاد النهر، فكان الرقيق من الأتراك، يتوافد إلى بغداد ومدن العراق، عن طريق الشراء أو الأسر، حتى زهرت به دور به المسلمين وبخاصة كبارهم.

وفى سنة ٢٠٠هـ أهدى عامل بخارى إلى الخليفة المأمون غلاما تركيا يدعى طولون، نبغ ولده بعد وخلصت له مصر وبعض أنحاء الشام.

فى سنة ٢١٨ ولى الخليفة المعتصم وكان قد فسد ما بينه وبين الفرس الذين تنادوا إلى خلعه وتولية ابن العباس بن المأمون، فشرع فى التحول عنهم وعن العرب إلى عنصر آخر كان لا يزال على الفطرة، ولم تصبه الحضارة بأوشابها.

كان هذا العنصر هو الأتراك.

أعلن المعتصم على سياسته هذه أن أمه كانت أم ولد تركيه تدعى ما رده.

بعث المعتصم فى طلب الأتراك من أقاليم دولته الشرقية وازداد عددهم لديه، حتى بلغ سبعين ألفا، وحرص على تعليم العربية وتنشئتهم كمسلمين، كما استقدم لهم زوجات من بنى جنسهم حتى يحافظوا على أصالتهم العريقة.

أصبح الأتراك هم القوة السياسية فى جيش المعتصم وقاموا بدور كبير فى حروبه ضد الروم الخارجين عليه وبخاصة الخرمية وقد تحدثنا فى فصل سابق عن الأفيشين، وأصله من ملوك أشوسنه، وعلى يديه تم القضاء على بابك الخرمى.

لم يتوقف المعتصم عند هذا الحد، بل أنه لم يلبث أن اسق العرب من ديوان الجند وكتب بذلك إلى عماله على الأمصار، فثارت اليمانية بالأردن كما ثارت القيسية بدمشق، وبعد أن قضت الدولة على ثورتهم انتهى دور العرب فى جيش الدولة ولم يجدوا مفرا من الاندماج مع غيرهم من الشعوب وممارسة أعمال كانوا يأنفون منها قبل ذلك.

على أن إيثار المعتصم للأتراك واختصاصه بهم، أدى إلى الاحتكاك بينهم وبين أهل بغداد، بحيث كاد يقع بين الفريقين.

فكرة المعتصم فى وسيلة يتجنب بها هذه المشاكل، واستقر رأيه على أن يبتنى عاصمة جديدة للدولة غير بغداد، فابتنى مدينة سر من رأى، على مبعدة ستين ميلا إلى الشمال، وانتقل إليها مع جنوده الأتراك فى سنة ٢٢١هـ.

استمرت سامرا (أو سر من رأى) عاصمة للخلافة العباسية حتى سنة ٢٨٩هـ حين تحول الخليفة المعتصم بالعاصمة مرة أخرى إلى بغداد.

فى سنة ٢٢٧هـ، ولى الواثق بالله، فتمادى فى سياسة أبيه مع الأتراك، وجعل من أشناس سلطانا، وأوكل إليه الجزيرة وبلاد الشام ومصر كما أوكل إليه إيتاخ خرسان والسند وكور دجله.

وفى سنة ٢٣٢هـ مات الواثق وولى أخوه المتوكل على الله.

٢ - سيطرة الأتراك على الخلافة:

أدت سياسة الخلفاء العباسيين مع الأتراك من حيث اختصاصهم بالمناصب الكبيرة فى الجيش، ومن حيث إقطاعهم بعض اختصاصهم بالمناصب الكبيرة فى الجيش، ومن حيث إقطاعهم بعض الولايات الكبيرة، أدت هذه السياسة إلى أن قوى شأن الأتراك، وبدأوا يتدخلون فى أمور الدولة، على نحو آثار الخليفة المتوكل نفسه ففكر فى أن يتخلى عنهم، ويعود إلى سياسة الأمويين فى الاستعانة بالعرب بل أنه انتقل إلى دمشق فى سنة ٢٤٤ هـ، وشرع نقل دواوين الدولة إليها.

اضطر المتوكل للعودة على سامرا عندما علم بشغب الترك عليه، ولم يمض وقت طويل حتى قتل فى سنة ٢٤٧ .

كان المنتصر يخشى أن يعزله أبوه من ولاية العهد، فدبر مع الجنود الأتراك مؤامرة لقتله، لكن الحال لم تدم بالخليفة الجديد سوى ستة شهور مات بعدها، واختار الأتراك أحمد بن محمد بن المعتصم خليفة باسم المستعين بالله.

كان الأتراك يشعرون بأنهم أصحاب الفضل على المستعين، فتمادوا بغيهم، وانفردوا دونه بالدولة وتزعمهم فى هذا المجال وصيف وبغا.

يقول أحد الشعراء:

خليفة فى قفص بين وصيف وبغا

يقول ما قلا له كما تقول الببغا

لم يجد المستعين إزاء تسلط الترك عليه إلا أن يترك سامرا فى سنة ٢٥١ هـ، ويرحل إلى بغداد فيابع الأتراك لابن عمه المعتز (ابن المتوكل) ودارت حرب بين الفريقين، انتهت فى العام التالى بتنازل المستعين عن الخلافة، ثم قتله بعد ذلك.

لم تستقر الأمور غفى يدى المعتز، وأدل على ذلك مكن أنه ولى الوزارة خلال عهده القصير أربع وزراء، ثم اصطدم المعتز مع القادة الأتراك، وسعى إلى أن يسقط أسم وصيف وبغالا من الديوانت، على أنه عندما عجز عن دفع مرتبات الجند ثاروا عليه، وأرغموا على عزل نفسه فى سنة ٢٥٥هـ، وحبسوه إلى أن مات فى الحبس.

بايع الأتراك محمد بن الواثق ولقبوه بالمهتدى بالله.

كان المهتدى من أفضل خلفاء بنى العباس وأكثرهم تقوى ودينا راعه ما شاهده من أحوال مترديه فى عصر فأراد أن يصلحها فكان يجبس إلى المظالم فيحكم بين الناس بالعدل ويداوم على الصلاة والصوم ويطرح الملاهى، وكان قدوته فى ذلك عمر بن عبد العزيز وينسب على المهتدى أنه قال" أنى أستحى يكون فى بنى أمية مثله، ولا يكون فى بنى العباس".

كان من الطبيعى أن يسعى المهتدى إلى استرداد سلطات الخليفة فاصطدم بالأتراك الذين تجمعوا فى سنة ٢٥٦هـ، بقيادة موسى ابن بغا، واشتبكوا مع الخليفة الذى قاد المعركة بنفسه وهزموا جنوده المغاربة[1]، ثم طلبوا منه أن يتنازل عن الخلافة فلما رفض قتلوه وبايعوا ابن عمه بن المتوكل الذى تلقب بالمعتمد على الله.

٣ - عصر نهضة الخلافة:

كانت شجاعة المهتدى فى تصديه للأتراك حافزا لمن خلفه أهل بيته على أن يعاود هذه السياسة من أجل أن سترد الخليفة هيبته وعم طاعته رعاياه كافة.

وعندما ولى المعتمد فى سنة ٢٥٦هـ بدأ عهدا دام نحو أربعين سنة استعادت خلالها الخلافة بعض ما كان لها قوة فى صدر حياتها.

---

(١) تعبير كان يطلق فى هذا العصر على عرب مصر الذين استقدمهم الخلفاء ليعملوا فى جيشهم.

استدعى المعتمد أخاه أبا أحمد طلحة من مكة وأمره بالتصدى للزنج الذين كانوا قد قاموا بثورة هددوات خلالها العراق، وفى سنة ٢٦١ ولاه عهده بعد ابنه جعفر المفوض، ولقبه الموفق، وعهد إليه بالولاية الشرقية، وهى العراق والحجاز واليمن وفارس وأصبهان والرى وخراسان وطبرستان وسجتان والسند فى حين عهد لولده مصر والشام والجزيرة والمغرب.

قام الموفق طلحه بدولة عجيبة الوضع، كان هو وأخوه الموفق طلحه كالشريكين فى الخلافة، للمعتمد الخطبة والسكة والتسمى بأمره المؤمنين، ولأخيه طلحة الأمر والنهى وقيادة العساكر ومحاربة الأعداء ومرابطة الثغور وترتيب الوزراء والأمراء، وكان المعتمد مشغولا عن لك بلذاته.

استطاع الموفق بما لديه من شخصية قوية أن يضع حدا لتسلط الأتراك وتحكمهم فى الخلفاء، بل استفاد منهم فى توطيد طاعة الدولة وكبح جماع الثائرين عليها وبذلك تمكن من التصدى ليعقوب بن الليث الصفار الذى كان قد تغلب على المشرق وحال بينه وبين اقتحام بغداد.

وجه الموفق جيوش الدولة للقضاء على ثورة الزنج، آلتى اشتعلت فى سنة ٢٥٥هـ، وأقضت مضاجع الدولة نحو عشرة سنة كما وجه هذه الجيوش أيضا لمناهضة الولاة الخارجين على الطاعة وبخاصة أحمد بن طولون والى مصر صادف الموفق نجاحات كبيرة فى هذه السياسة وعندما توفى سنة ٢٧٨هـ، لم يجد المعتمد إلا ان يخلع ولده المفوض من ولاية العهد ويجعل مكانه أبا العباس ابن الموفق ومنحه لقب المتعضد بالله.

فى سسنة ٢٧٩هـ مات المعتمد فخلفه المعتضد الذى سار سيرة أبيه واستطاع قبل وفاته ف سنة ٢٨٩هـ أن يصل إلى تسويه مع خماوريه بن أحمد بن طولون الذى راضاه وهاداه وزوجه بابنه قطر الندى.

استطاع المعتضد أيضا أنت يضرب على أيدى الأجناد وكان إذا غضب على احد القادة أمر بإلقائه فى حفره وردم عليه كما عنى بنشر الأمن ورفع الظلم عن

الرعية وأسقط المكوس غير الشرعية وبذا جدد دولة بنى العباس حتى لقب بالسفاح الثانى، وفى يقول ابن الرومى:

هنيـئـــا بنى العـبـــاس إن أمـامكم
إمام الـهدى والبـاس والجود احـمد
كـمـا بابى العـبـاس أنشـئ ملككم
كـذا بأبى العـــبـاس أيضـا يجـدد
إمـــام بظل الأمس يعـــمل نحـــوه
بلهـف ملهـــوف ويشـاقـــه الغـــد

عندما ولى المكتـفى بعد أبيـه فى سنة ٢٨٩هـ، كانت أحوال البـلاد مزدهرة وبيت المال بتسعة ملايين دينار من الذهب وأربعـين مليون درهم من الفضة، فضلا عن دولة سادها الاستقرار والنظام.

استعادة الدولة مصر والشام من الطولونيين فى سنة ٢٩٢هـ، على أن ظهور القرامطة واستبداد أمـرهم واستغرق كثيرا من جهـد الدولة فقد صلت غاراتهم إلى ضواحى بغداد نفسها، وكان لكل ذلك أثره فى أضعاف الدولة وانتهاء النهضة التى بدأت سنة ٢٥٦هـ بوفاة المكتفى فى سنة ٢٥٩هـ.

٤ - عودة نفوذ الأتراك:

شعـر الأتراك بالخطر الناشئ عن وجود خلـفاء أقوياء فـعدلوا عـبد الله ابن الخليفة المعتضد على جعفر ابن المعتضد فاختاروا خليفة ولقبوه بالمقتدر.

كان المقتـدر صبا صغيرا فى نحـو الثالثة عشرة من عـمره لا دراية له بأمور الحكم فأسلم قادته للأتراك وتدخلت أمه شئون الدولة

يقول المسعودى الذى عاصر المقتدر وعاش بعده:

"أفضت الخلافة عليه وهو صغـير، لم يعان الأمور، ولا وقف على أحوال

الملك فكان الأمـراء والوزراء والكـتاب يديـرون الأمور لـيس له فى ذلك حل ولا عقـد، ولا يوصف بتدبير ولا سـياسة وغلب على الأمـر النساء والخدم وغـيرهم فذهب ما كـان فى خزائن الخلافة من الموال بسوء التـدبير الواقع فى المملكة، فأداه ذلك على سفك دمه، واضطربت الأمور بعده، وزال كثير من رسوم الخلافة.

حاول عـدد من وزراء المقتدر إصـلاح الخلل الذى أصاب جـهاز الدولة من هؤلاء الوزراء على بن عيـسى بن الجراح الذى ينتمى إلى أسره قديـمة من الكتاب فعـسى عندما ولى سنة ٣٠١هـ على ضبط الدواويـن ونشر الأمن وبنه على الولاة بحس السيـرة مع رعاياهم وإنصافهم مـن جباة الضرائب وتصـدى لظاهرة الرشوة التى كانت قد استشرت فى ذلك الحـين، وجلس بنفسه إلى المظالم وعنى بتحسين حالة الفقـراء والمعوزين، ووقف أوقاتا للنفقـة منها على إصلاح الثغـور والحرمين وجعل لذلك ديوانا دعاه بديوان البر.

على أن بعض أصحـاب المصالح، ممن كانت تمسهم هذه الإصـلاحات وفى مقدمتهم أم الخليفة نفسه وقـفوا حجر عثرة فى طريق الوزير وسعوا فى عزله أن تم ذلك فى سنة ٣٠٤هـ، وولى مكانه حـامد بن العـباس الذى لم يظـهر كفـاية فى ممارسة مهام منصبه، واضطر إلى أن يستعين فى هذا المجال بالوزير السابق على بن الجراح وجعله نائبا له.

تولى على الدولة بعد ذلك عدد من الوزراء الضعاف وعندما حاول على بن الفرات أن يسترد ما كان للوزير من سلطة، انتهى أمره إلى القتل فى سنة ٣١٢هـ، ولم يعد للوزارة دار تختص بها، وإنما صار من تلاه من الوزراء يمارسون أعمالهم من دار الحاجب.

فى الوقت نفسه أخذ الأتراك احتياطهم حتى لا يلى الدولة خليفة قوى يقف فى سبيلهم فدرجوا على تنشئة أبناء المقتدر تنشئة تحول بينهم وبين الممارسة السليمة لسلطاتهم.

يذكر الضوئى أنه عندما عهد إليه بـتربية الراضى وهارون المقتدر كان يحبب إليهم العلـم، ويشترى لهـما كتب الفـقه واللغة والأدب، فـوصلته تعليـمات من

القصر بأن يكف عن ذلك وقيل له: ما نريد أن يكون أولادنا أدباء ولا علماء وهذا أبوهما قد رأينا كل مـا نحب فيه وليس بعالم "فبكى الصـولى وقال "كيف نفلح مع قوم هذه نياتهم".

اضطربت الأحوال فى بلاد العـراق، فخرج مؤنس الخـادم وهو أحد القواد الأتراك على المقتدر حيـن بلغه عزم الخليفة على عزله من منصـبه وتولية آخر بدلا منه، ومع أن المقتدر عـدل عن عزمه هذا إلا أن مؤنسه لم يلبث أن تأمـر مع غيره من الجند على عزله أعاد ولم يلبث أن عزله مـرة ثانية وذبحه، وولى أخوه القاهرة فى سنة ٣٢٠هـ.

كان القاهر يخشى على نفسه مصيرا كمصير أخيه المقتدر، فعمد إلى التظاهر بالقوة، وزاد فى ألقابه عبارة "المنتقم من عداء الله" ونقـشها عأعداء الله" ونقشها على السكه، وحاول أن يسـتميل الجند إليـه بالمنح والعطايا لكنهم تألبوا عليـه بعد سنتين وعلوه وسلموا عينيه فصار أول من تسمل عيناه من الخلفاء.

بعد عزل القاهر جعل الأتراك مكانه الراضى ابن المقتدر.

٥ - عصر إمرة الأمراء:

كانت الأمور قد تردت إلى حد بعيد حين ولى الراضى فى سنة ٣٢٣هـ فأن القـادة الأتراك لم يقتنـعوا بسـيطرتهم على الدالة فـحسـب، وإنما انصرفـوا على المتنازعات فيما بينهم وكانت هذه المنازعـات تترك أثرها السيئ على الدولة نفسها، كما ظهـر عنصر جديد هدد الأتراك فى نفوذهم هو عنصـر الديلم، بل أن العنصر العربى بدأ يعود على الساحة مثلا فى الحمدانيين بالموصل.

أحس الأتراك بهـذه التطورات ووقـفـوا عاجـزين إزاءها، وبعـد أن كـانوا يفضلون الإقامة فى بغداد كى يكونوا قريبين من أحداث صاروا يؤثرون التوجه إلى الولايات البعيدة عن العاصمة حتى ينئو بأنفسهم عن المتعب.

فى سنة ٣٢٤هـ، سعى الراضى على حـل المشكلة بأن استدعى محـمد ابن رائق أمير واسط والبصرة وفوضه سلطانه، ودعاه بأمير الأمراء وتقرر أن يخطب له على المنابر وينقش اسمه على السكه وأطلقت يداه فى توليته الوزراء وعزلهم.

يقول مسكويه "وبطل منذ يومئذ أمر الوزارة، فلم يكن الوزير ينظر فى شىء من أمر النواحى والدواوين والأعمال، ولا كان له غير اسم الوزارة فقط.

استقرت الأحوال فترة، على أنه فى سنة ٣٢٦هـ، خرج أبو عبد الله البريدى صاحب الأهواز على ابن رائق، كما خرج عليه احد قواده الأتراك ويدعى بجكم، والحق به الهزيمة وطرده من بغداد وجبس مكانه كأمير للأمراء.

اعتزم ابن رائق استرداد سلطته فاقتحم بغداد فى سنة ٣٢٧هـ، واستولى على بيت المال، ولم ينجح الخليفة فى استرضائه إلا بعد أن ولاه الشام.

فى سنة ٣٢٩هـ، مات الراضى وخلفه أخوه إبراهيم الذى تلقب بالملتقى بالله بجكم أميرا للأمراء، فلما قتل بجكم هذا على يدى بعض الأكراد عاد ابن أبا الحسن فى جيشه من الأتراك والديلم، فلحقت الهزيمة بابن رائق وهرب من بغداد وفى أثره المقتفى.

لجأ الخليفة إلى الموصل حيث طلب عون حاكمها الحسن بن حمدان، فأجابه على مطلبه، واصطحبه إلى بغداد فى سنة ٣٣٠هـ وتلى منصب أمره الأمراء، بعد أن قتل ابن رائق وخلع عليه المتقى ولقبه ناصر الدولة كما خلع على أخيه ولقبه سيف الدولة.

تعسف ناصر الدولة مع الخليفة، وضيق عليه فى نفقاته وانتزع منه ضياعه، وفى الوقت نفسه اختل حال الأمن فى بغداد، وانتشر اللصوص وغلت السعار، حتى صار الناس يموتون جوعا.

انتهز المتقى فرصة رحيل ناصر الدولة على الموصل، فاستمال توزن الدايملى وجعله أميرا للأمراء فى سنة ٣٣١هـ.

على أن الخليفة ما لبث أن اختلف مع توزون ففارق بغداد مرة ثانية على الموصل وأخفق ناصر الدولة فى فى مساعدته فأرسل المتقى على واليه على مصر محمد بن طفج الأخشيد يطلب عونه، فاقترح عليه أن يفد إلى مصر حيث الأمان

لكن المتقى رفض وقـرر العودة إلى بغداد، فوقع فى يدى توزون الذى سـمل عينه وحسه.

أعلن توزون عـبد الله ابن المكتفـى خليفة ولقـبه بالمسـتكفى وأستـبد بدونه بالسلطة، ومات بعـد شهور فخلفـه فى منصب أمير الأمـراء كاتبه أبو جعـفر بن شيرزاد.

لم يكن ابن شيرزاد بأحـسن حال ممن سبقه، فقـد لجأ إلى المصادرة، لينفق على أرزاق الجند من الأتراك والديلم وتـعسف فى جـمع الضرائب، حـتى اضطر التجار إلى الهرب من بغداد وانتشر الاضطراب فى المدينة.

* * *

الثورات الاجتماعية ضد الدولة العباسية

تمهيد

١ - ثورة الزنج

٢ - القرامطة

الثورات الاجتماعية ضد الدولة العباسية

تمهيد:

رافق ضعف الدولة العباسية ظاهرتان هامتان، أولاهما: الاستقلال أى استقلال معظم أقاليم الدولة عنها، مع الاعتراف بسيادتها أحيانا وعدم الاعتراف بهذه السيادة أحيانا أخرى الظاهرة الثانية هى قيام ثورات اجتماعية نزعت إلى تغيير الأسس التى نهضت عليها الدولة الإسلامية، بل المجتمع الإسلامى الذاتى.

أهم الثورات هما ثورة الزنج وثورة القرامطة، ومع ما كان لهاتين الثورتين من طابع اجتماعى، إلا أنه كان لهما أيضا طابع سياسى - دينى.

والحقيقة أن رفع هاتين الثورتين شعارات دينية كان له ما يبرره، لأن الإسلام بطبيعته دين ودنيا، ويتعذر الفصل بين هذين الجانبين.

من هنا تعرض هؤلاء الثوار لهجوم من أعدائهم امتد من ساحة المعارك إلى ساحة الأفكار ومن العصر الذى عاشوا فيه إلى عصرنا هذا.

والخلاف القائم الآن بين الباحثين فى هل أتى هؤلاء الثوار بما يمس جوهر الدين، وبالتالى لا يعدون مسلمين، أنه أن ما يبدوا على السطح خلاف، هو فى الحقيقة اجتهاد فى التفاصيل أخطأ أو أصابوا.

نرجع من جانبنا أن هاتين الثورتين كانتا محصلة لظروف اجتماعية معينة، ولم يكن لدى روادهما أفكار تتناقض مع الإسلام، وربما دخلت هذه الأفكار فى نسيج الدعوة بعد ذلك.

ولدينا نموذج واضح فى الشيعة والخوارج، فهؤلاء مسلمون، وما زالوا مسلمين ومع ذلك، فإن بعض من بدأ شيعيا أو خارجيا لم يلبث أن أداه تطرفه إلى الوقوع تحت تأثير أفكار غريبة وغير إسلامية، وبعد زمن طال أو قصر لم يعد مسلما.

على أن هناك سببا هاما فى سوء ظن بعض المؤرخين بهذه الثورات الاجتماعية، هذا السبب يتحدد فى أن التراث الفكرى الذى أبدعه الثوار اندثر كله أو جله، وإذا كان التراث الفكرى لقوم كالمعتزلة والشيعة والخوارج قد وصلنا فى معظمه، بالمرجع فى ذلك أن هؤلاء ما زال لهم وجود منذ أماد متباعدة، وتكفل أعداؤهم من السنة والشيعة بتدمير تراثهم.

تأسيسا على ذلك فإن مصادرنا فى الكتابة عن هؤلاء الثوار هى المصادر نفسها التى تنسب لأعدائهم، وعلينا أن نتملاها بحذر شديد.

١ - ثورة الزنج:

فى سنة ٢٥٥ اشتعلت ثورة تعرف فى التاريخ بثورة الزنج، وقد دامت هذه الثورة خمس عشرة سنة إلى أن أنتهت فى سنة ٢٧٠ هـ.

والزنج تعبير يقصد به - على وجه العموم - قوم ذو بشرة داكنة، أو أقرب إلى أن تكون داكنة، ويقصد به - على وجه الخصوص - العبيد الذين كانوا يجلبون فى معظمهم من سواحل أفريقية الشرقية.

أ - الإسلام والرق:

فى عصور موغلة فى القدم عرف الإنسان الرق الذى أضحى ظاهرة عامة فى التاريخ، حتى نهاية القرن التاسع عشر الميلادى، وربما حتى سنوات قليلة فحسب.

اختلف موقف الإسلام من الرق عن غيره من الديانات والنظم الاجتماعية، فقد نظر إلى الرق على أنه حال مؤقتة، لأن الأصل فى الإنسان هو الحرية وعلى ذلك فالرقيق حقوق كما أن عليه واجبات.

من حماة هذه الحقوق التى جرى تطبيقها بدقة أنه لم يكن مصرحا للمالك بالتصرف مع عبده كما يهوى، وإذا حدث وأفقده حياته، أو أصابه بأذى، فإن الملك يتعرض لعقوبة، تختلف بين فقيه وبين فقيه آخر ومنها أيضا عدم جواز الفصل بين أفراد الأسرة الواحدة من الرقيق عند البيع.

وإذا كان الإسلام قد أباح الأمة الكتابية بملك اليمين، فقد أباح الأمة المسلمة بالنكاح وملك اليمين، وأباح بعض الفقهاء الأمة الكتابية بالنكاح.

كانت الأمة حين تنجب من سيدها، تتغير وضعها فتصير أم ولد، ولا يجوز له بيعها فإذا فعل نقض بيعه، وإذا مات عنها صارت حره.

وعلى ذلك نجد معظم أمراء البيت العباسى وخلفائه أبناء أمهات أولاد، مثل المأمون وأمه مراجل الفارسية، والمعتصم وأمه ماردة التركية.

وغنى عن البيان أن الإسلام شجع على عتق العبيد، وجعله أحد مصارف الزكاة، وكان فى إمكان العبد أن يشترى حريته بمبلغ من المال يؤديه لسيده منجما، وهى طريقة المكاتبة، أو يوصى السيد بعتقه حال وفاته، وهى طريقة التدبير.

وكانت تصدر بشأن العتق وثيقة يوقع عليها شهود.

وكان يحدث أحيانا أن يدعى بعض الناس الحرية، ويدعى آخرون امتلاكهم لهم، فكان الفقهاء والقضاة يميلون على جانب الأولين، ويطلبون ممن يدعى امتلاكهم أن يأتى ببينة، تطبيقا لمبدأ البينة على ادعى واليمين على من أنكر.

عندما يتحرر العبد يصير مولى لمن أعتقه، أى عضوا فى أسرته يرث مولاه، ويرثه مولاه وينسب إليه إذا لم يعلم أبوه، وقد تبنى الرسول ﷺ زيدا مولاه على أن نزلت الآية الكريمة، التى بناء على رد زيد إلى نسبه فى قبيلة كلب.

هيأ الإسلام أيضا للعبد الذمى لسيد ذمى فرصة الحرية إذا أسلم، بل أن العتقاء الذين ظلوا على ديانتهم الأصلية، لم تكن تؤخذ منهم جزية.

كان العبيد بعد تحريرهم يشاركون فى الحياة العامة، ولدينا نموذج الأجناد الترك فى العصر العباسى الثانى، وقد استطاعوا أن يسيطروا على الخليفة نفسه، بحيث لم يعد له من الأمر شىء. ولدينا أيضا فى تاريخنا المصرى المماليك، الذين حكموها فترة طويلة امتدت حتى دخول العثمانين وشاركوا فى حكمها بعد ذلك إلى أن أزلهم محمد على الكبير، كما أن المعتقين لعبوا دورا أساسيا فى الثقافة الإسلامية نستطيع أن نلمسه من تراجمهم فى كتب الطبقات.

يتضح من ذلك وغيره أن الرقيق عند المسلمين كان بوجه عام أفضل من الرقيق عند غير المسلمين، ولم تتفصل الأفكار الإسلامية بشأنه عن الواقع الذى عاشه الرقيق تقريبا.

هذه المقدمة مهمة لأنه فيما عدا ثورة الزنج التى هى موضوع بحثنا، لا نشاهد ثورة أخرى قام بها العبيد على مدار التاريخ الإسلامى كله، فى حين أن ثوراتهم خارج حدود هذا التاريخ عديدة، ويكفى أن نتذكر ثورة سبارتاكوس "Sportacus" الشهيرة فى التاريخ القديم والتى تهددت الإمبراطورية الرومانية ذاتها.

ما دامت هذه مبادئ الإسلام بشأن الرقيق، وما دامت هذه حياتهم فى ظل الإسلام.

إذن لماذا قامت ثورة الزنج؟

ب - أسباب الثورة ومقدماتها:

قامت ثورة الزنج لأسباب خاصة بالزنج أنفسهم فى مرحلة تاريخية معينة، وعندما انتفت هذه الأسباب بعد ذلك، لم يعد ثمة ضرورة لثورة أخرى يقومون بها.

أسفر الرخاء الذى ساد الدولة الإسلامية فى العصر العباسى الأول عن ظهور طبقة من الأثرياء، تجمعت لديهم رؤوس أموال كبيرة نتيجة لعلمهم فى التجارة. بحيث كانت سفنهم ترتاد سواحل الهند والصين كما كانت ترتاد نفسها.

وينوه ابن الفقيه الذى دار البصرة فى أواخر القرن الثالث بالطبيعة التجارية لأهلها فيقول "أبعد الناس نجعة فى الكسب بصرى وحسيرى (يمنى) ومن داخل فرغانة القصوى (أقصى بلاد الترك) والسوس الأقصى (أقصى بلاد المغرب) فلا بد أن يرى فيها بصريا أو حسيريا".

انصرف هؤلاء السادة على إنفاق أموالهم فى مجالات الترف التى زجر بها

عصـرهم، كما تصـرفوا أيضا فى المؤامـرات التى تردد صداها فى حـاضرة الدولة وبخاصة بعد تغلب الأتراك عليها.

على أنه كان هناك مجال أخـر لإنفاق هذه الأموال تكالب عليه الأثرياء وهو شراء الـعبيـد ولما كانـت أسعار الـعبيـد البيض (أو الـبيضـان) مرتفـعة، بسـبب استخدامهم فى الجيش كجنود (الدنيا نموذج الأتراك) فقد انصرف بعض الأثرياء من أهل جنوب العـراق على شراء العـبيـد السـود (أو السودان)، وقـد تكلف بذلك مراكبهم التى كانت تنتقل بين موانى العراق وبين سواحل أفريقية.

كانت مهمة العـبيد فى الحضارة الإسلامية، تختلف عن مهـمتهم فى غيرها من الحضارات. لأن المسلمين جعلوا هذه المهـمة على نحو أساسى هى الخدمة فى دار السيد أو فى المنطقـة القريبة من هذه الدار، ولم تكن مهمتـهم العمل الإنتاجى فى زراعة أو صناعة، إذ كان يقـوم بهذا العمل فى الضياع الكبيـرة فلاحون أحرار مسلمون أو غير مسلمين. عندما تجمعت من العـبيد أعداد كبيرة، ووجد أصحابهم أن مجالات الخدمة المنزلية أصبحت محدودة أمامهم، انصرفوا إلى توجيههم للعمل فى الزراعة، وربما نقل هؤلاء السادة هذا الأسلوب عن جـيرانهم فى أوربا، حيث كان الزراعى على نحـو أساسى منوطا بالعبيـد والأقنان وهو أنصاف العبـيد. كان ذلك

أمرا غـريبا. لأنه يخالف ما جـرت عليه العادة من ناحـية ولأنه وهو الأهم أدى إلى سخط العبيد أنفسهم.

كيف كان ذلك؟

نتج عن عمل العبـيد فى الزراعة تراكم رأس مالى عند السـادة حفزهم على إعادة استـثماره بشراء المزيد من العبـيد، ودفعهم إلى العمل ذاته فـيزداد، التراكم بالتالى، ويتيح الفرصة للاستثمار جديد وهكذا.

لم يكتف السادة بذلك بل أنهم وجهوا عبيدهم إلى استصلاح أراضى جديدة تهيئ الفرصـة بمزيد من الزراعة، خصوصا وأن فـائض رأس المال كان يشجع على

ذلك، ولأن عملية الاستصلاح نفسها كانت تجرى شمال بحر العجم (الخليج العربى) حيث توجد مستنقعات يسهل استخراج الملح منها، وكان الملح سلعة عزيزة فى ذلك العصر اشتد الطلب عليها.

ولا يخفى أن استصلاح أرض كان يعقبه مباشرة أن تصير ملكا لمن استصلحها، وهو ما يقول به الفقه فى مجال إحياء الأرض الموات.

تجمعت من العبيد أعداد كبيرة فى الأراضى المزروعة والأراضى المستصلحة، وكان أفراد الجماعة الواحدة منهم يتراوح بين خمسمائة وبين خمسة آلاف وشعر أصحابهم بأهميتهم كقوى إنتاج تدور عائدا ربحيا كبيرا، وسعوا على تخفيض نفقات إعاشتهم، فلم يعطوهم أجرا محددا، واكتفوا لهم بقليل من الدقيق والتمر والسويق، وضيقوا عليهم من ناحية السكنى، وامتد هذا التضييق إلى المعاملة نفسها فأى تهاون من احدهم فى العمل يجعله عرضة للتعذيب ويصير عبرة لإخوانه.

سارت بين العبيد روح من التذمر أعان عليها أنهم، وإن كان بعضهم قد وفد حديثا من أفريقيا، ولم يكن يجيد العربية، إلا أن البيئة حولهم كانت بيئة إسلامية، ولما كان الإسلام دينا بسيطا، ليست فيه طقوس، ومن اليسير التعرف على تعاليمه، فأنه أصبح دين هؤلاء العبيد كقاعدة.

عرف العبيد - رغما عن ثقافتهم المحدودة - أن الإسلام يقول فى شأنهم قولا يختلف عما يشاهدونه من واقعه.

أعان على ذلك أيضا طبيعة المنطقة التى عاش فيها هؤلاء العبيد، فقد تمرست هذه المنطقة لفكر الخوارج الثورى، كما تمرست أيضا بفكر الشيعة ورغما عن قمع هؤلاء وأولئك مرات، ومرات إلا أن أفكارهم لم تنقرض تماما، إنما باقية ليتلقفها بعدهم ثوار غيرهم.

النموذج إذا كان حاضرا.

فى أوساط القرن الثالث أضيف عنصر جيد، هذا العنصر هو التضخم أو الغلاء بمصطلح العصر، بأن تدفق الثروات وكثرة الأموال أديا على ارتفاع الأسعار

وبخاصة أسعار الحنطة والشعير وهما سلعتان رئيسيتان لا غنى عنهما، وقد أدى ذلك على سخط الطبقات الدنيا التى لا تتوافر لديها القوة الشرائية اللازمة لمواجهة هذا الغلاء ويشير الطبرى - المؤرخ المعاصر - إلى ما قام به أهل بغداد علاجا للموقف - بأن منعوا سلعهم من تباع فى سامرا، فجاراهم أهل هذه المدينة بان منعوا سلعتهم من أن تباع فى بغداد. لم تستطيع الدولة أن تفعل شيئا حيال هذه التطورات ويكفيها ما لديها من مشاكل ضربت أطنابها فى سامراء وبغداد عزل خلالها خلفاء وسلمت أعين بعضهم، وحبس البعض الأخر فظل فى حبسه إلى أن مات.

ج - على بن محمد والثورة:

على بن محمد الفارسى الأصل من أهل الطالقان وفد على العراق فى سنة ٢٤٧هـ، واتصل ببعض خاصة الخليفة المنتصر بسامراء، ثم غادروها إلى غيرها من مدن العراق، وطاف بالمناطق الواقعة على رأس بحر العجم والتى كانت تكتظ بالعبيد فلما عاين أحوالهم، ولمس بنفسه تذمرهم استقر رأيه على الثورة به.

ولما كانت السمة العامة للثورات سمة دينية، فإن على بن محمد ادعى نسبا علويا، أنه على بن محمد بن أحمد بن عيسى بن زيد بن على زين العابدين بن الحسين بن على بن أبى طالب.

الجدير بالذكر أن الثائر رغما عن اتخذاه هذا النسب العلوى لم يدع إلى مذهب شيعى بعينه بل ينسب إليه إنه كان يسب عثمان وعليا ومعاوية وطلحة والزبير والسيدة عائشة.

دعا على بن محمد إلى مبادئ أقرب إلى مبادئ الخوارج ونذهب من ناحيتنا إلى أن عليا هذا فى دعوته كان متسقا مع نفسه ومع أحداث ثورته وطبيعتها، لأن الخوارج كانوا أكثر ثورية من الشيعة، فهم سياسيا لم يقصروا الإمامة فى قبيلة معينة ولا حتى شعبا معينا بل هم أجازوها لمن كان فى أصله عبدا ثم تحرى، وذهب بعضهم إلى إنكار الإمامة نفسها من ناحية أخرى فقد عرف عن الخوارج

بساطتهم فى فهمهم للدين، ولم تجتذبهم الثقافات القديمة والأفكار المسبقة التى نشاهدها عند الشيعة.

عقيدة مثل ترك كانت تجتذب ولا شك أقواما حديثى عهد الإسلام بل حديث عهد بالعربية الأمر الذى رفع زعيمهم إلى أن يستعين بالتراجمة أحيانا للتفاهم معهم.

عرف على بن محمد أيضا بصاحب الزنج.

فى سنة ٢٥٥هـ، قوى أمر صاحب الزنج وانتشرت دعوته لتحريم العبيد فى العراق والبحرين وهجر فأقبل على البصرة، واجتمع إليه كثير من العبيد الأبقيين، فأتاه أصحابهم يطلبونهم فى مقابل أن يبذلوا له عن كل عبد خمسة دنانير، فرفض الثائر طلبهم وأمر فضربهم عبيدهم السابقون بالسياط.

اتخذ صاحب الزنج لواء نقش عليه هذه الآية الكريمة "إن الله اشترى من المؤمنين أنفسهم وأموالهم بأن لهم الجنة يقاتلون فى سبيل الله فيقتلون ويقتلون وعدا عليه حقا فى التوراة والإنجيل والقرآن ومن أوفى بعهده من الله فاستبشروا ببيعكم الذى بايعتم به وذلك هو الفوز العظيم".

أول صاحب الزنج هذه الآية تأويلا سياسيا، فادعى أن المؤمنين ماداموا قد صاروا كذلك فليس لهم بعد أن يسترقوا.

يوم الفطر من هذا العام خطب على بن محمد الزنج، وصلى بهم، وذكرهم بحالهم التى كانوا عليها، وحفزهم على الحفظ على حريتهم والتمسك بها، ومناهم بالغنائم التى سوف يحصلون عليها باستمرار ثورتهم، وابتنى لهم مدينة دعاها المختارة.

خرج صاحب الزنج من المختارة، واجتمعت له جيوش الزنج وانتشر بها فى جنوب العراق وخوزستان والبحرين ونهج القادسية وعندما حاربه أهل البصرة هزمهم، واستولى على سفن عديدة لهم، وربما كانت هذه السفن مخصوصة لشحن العبيد من سواحل أفريقيا على العراق.

تناهت أخبار الثورة إلى حاضرة الدولة فى سامراء فأرسل الخليفة المعتمد جيشا بقيادة جعلان وهو أحد الأتراك، ودار قتال قرب البصرة أسفر عن هزيمة جعلان وقتله، واستولى الزنج على مدينة الأبله وهى ميناء وهام تقع على الساحل كما استولوا على الأهواز، واقتحموا البصرة نفسها فى سنة ٢٥٧هـ، وأشعلوا النار فيها وذبحوا كثيرا من أهلها فاضطر سائرهم إلى الهجرة بها على غيرها من المدن.

قوى أمر صاحب الزنج ودخلت جموعه واسط وأمهر مر، فعاود المعتمد حربه، فى سنة ٢٥٩هـ، وأرسل إليه قائده الكبير موسى بن بغاه وشيعه بنفسه حتى أبواب سامراء وخلع عليه.

انتصر موسى على الزنج، وأغراه انتصاره بمتابعة الحرب ضدهم فانقلب على سلسلة من الهزائم، وأصبح الزنج على بعد سبعة عشر ميلا من بغداد.

انضم إلى الزنج فى هذه المرحلة عدد كبير من الفلاحين الأحرار وغيرهم من الفئات المحرومة، تذكر المصادر منهم اثنين أحدهما طحان والآخر بائع عصير، كما انضم إليه أيضا عدد كبير من البدو.

كان الموقف خطيرا يتهدد وجود الدولة نفسه، كما يتهدد البنيان الاجتماعى الذى تعبر عنه هذه الدولة وزاد من خطورته العدد الهائل من القتلى الذين أصابهم الزنج، وفى ذلك يقول السعودى - وهو مؤرخ قريب العهد بالأحداث يصف صاحب الزنج "أفنى من الناس مالا يدركه العبد، ولا يقع عليه الحصاء، ولا يعلم ذلك إلا عالم الغيب. . .والمقل يقول: أفنى من الناس خمسمائة ألف، وكلا الفريقين يقول ذلك ظنا وحدسا، إذ كان شيئا ولا يضبط".

لم يجد المعتمد إلا أن يبعث إلى أخيه أبى أحمد طلحة، وكان المهتدى قد نفاه إلى مكة فخلع عليه وولاه عهده ودعاه بالموفق.

تهيأ الموفق للمواجهة واتصل بوالى مصر أحمد بن طولون يطلب عونه، فاستجاب له وأرسل مليونا ومائتى ألف دينار.

توجه الموفق لحرب الزنج وأحرز عدة انتصارات عليه، لكنها كانت انتصارات

محـدودة، لم تؤثر على حـركتهم علـى نحو أساسى، وفـى الوقت نفسـه سعى صـاحب الزنج للاتصال ببـعض الخـارجين على الدولة منـهم يعقـوب ابن الليث الصفار، كى يتعاونا سويا ضد الموفق، لكنه لم يجد منه أذنا صاغية.

أعاد الموفق تعبئة قـواته وخرج على واسط فى سفر سنة ٢٦٧هـ، ونجح فى هزيمة الزنج، وأجلاهم عن الأهواز، ثـم حاصروا مدينتهم المخـتارة، وبنى إيذائها مدينة دعاها الموفقة نسبة إليه.

اشتد الموفق فى حـصار المختارة، وقطع ولده عباس المسيـرة عنها، ثم سقط فى يده نصفـها المغربى فـاستسلم له عدد كـبير من الزنج عـاملهم معاملة طيـبة، فأغراهم بذلك على الانضمام إلى جانبـه، وظل حصاره لسائر الثوار حتى سقطت المدينة كلها فى يده سنة ٢٧٠هـ/ ٨٨٣م.

أسفر اقتحام المختارة عن مـقتل عدة ألاف من الزنج واحتذ رأس صاحبهم، وجعل على رمح طـيف به فى البلاد، وعم الفرح بغـداد ونظم عدد من الشـعراء قصـائد فى هذه المناسبة، وعـاد الناس إلى بلادهم التى كانوا قد هجـروها، وعاد العبيد إلى العبودية.

٢ - القرامطة:

ما كـادت ثورة الزنج تنته، حتى اشتـعلت ثورة جديدة، فى منطقة قـريبة، دعيت هذه الثوار فى ثورة القرامطة.

قرامة نسـبة إلى قرمط، وهو حمدان بـن الأشعث، دعا بذلك لقصر قـامته ورجليه، ويقال أيضـا أن قرمط تعنى عند أهل العراق فلاحا وكان حـمدان يمتهن الفلاحة.

أ - الإسماعيلية وتطورها:

ينقسم الشيعة إلى فريقين كبيـرين هما الزيدية والإمامية، أما ماعدا ذلك من فرق فهى قليلة الشأن ومعظمها اندثر.

يدعوا الزيـدية – وهم أكثر اعـتدلا – إلى زيد بن على زين العـابدين، بن الحسين بن على بن أبى طالب، وقـال أن عليا يستمد حقـه فى الإمامة، من كونه أفضل الناس بعد النبى ﷺ وليس لأنه وهية، ولم تفكر أحدا من الصحابة، وترى بجواز إمـامة المفـضول، مع وجـود الأفضل، وعلى ذلك أقـرب بإمامـة أبى بكر وعمر.

أما الإمـامية – وهم أكـثر عدادا – فـذهبوا إلى أن الإمامـية لا يكفى فيـها الوصف، وإنما هى معينة الشخص، فعلى عين بوصية من النبى "ﷺ".

على أن الأمامية يختلفون بعد أن وصـلوا على جعفر الصادق، فذهب فريق على إمامة ابنه موسى الكاظم وهؤلاء دعوا بالإثنى عشرية، ويذهب فريق آخر إلى إمامة ابنه الآخر إسماعيل، وهؤلاء دعوا بالسبعية أو الإسماعيلية.

يرى الاثنى عشرية أن الإمـام الثانى عشر، وهو محـمد المنتظر دخل – وهو صغير سردابا فى دار أبيه الحسن العسكرى بمدينة سامراء ولم يعد، ويرون أيضا أنه ما دام الأئمة هم الأوصياء على الأمة فإن الإمـام يصير معصوما من الخطأ، وعلى يديه تجرى الخوارق.

أما الإسماعيلـية فيشتركون مع الاثنى عشـرية فى معظم ما يقولون، فكلهم يضيفـون إلى فكرة أخرى، هى الإمام المكتوم أو المستـور، وأنه المهدى الذى تقوم القيامة، حتى يملأ الأرض عدلا، كمـا ملئت جورا، ويضيفون على فكرة العصمة فكرة أخرى وهى أن العصمة لا تعنى فقط الإمام لا يرتكب خطيئته بل أن ما نظنه خطيئة للإمام، إنما هى علم فى الحقيقة.

ونتيـجة لمقام دعـاة هذا المذهب فى شرق الدولة الإسـلامية تأثروا بالعـقائد السائدة هناك، وقد أغرتهم بالسرية لذلك أكانوا يدعون بالباطنية أحيانا. وأصل هذه التسمـية الزعم بأن الشيعة ظاهرا وباطنا للناس علـم الظاهر، وللإمام علم الباطن كما أن ما شاب بـعض طوائف الإسماعيلية من غموض، وارتباطهـا بالمغنيات فقد دعيت هذه الطوائف بالحشاشين.

تتسلل الإمامة عند الإسماعيلية فتنتقل من إسماعيل بن جعفر الصادق على ولده محمد المكتوم بن إسماعيل بن محمد المكتوم، ثم محمد الحبيب بن جعفر المصدق، ثم جعفر المصدق، ثم عبيد الله المهدى بن محمد الحبيب، وهو أصل الدولة الفاطمية.

اتخذ الإسماعيلية مدينة سلمية، من أعمال حماة بالشام مركزا لنشر دعوتهم، ومنها يتوجه الدعاة إلى سائر الأنحاء. وتوالى أمر الدعوة فى أوائل القرن الثالث سيمون القداح الذى مات فخلفه ولده عبد الله، الذى استطاع أن يستميل على الدعوة رجلا من أهل السواد (العراق العربى تقريبا) هو حمدان بن الأشعث المعروف بقرمط، فنشر الدعوة على المذهب الإسماعيلى، وساعده فى ذلك صهره عبدان عندما مات حمدان قرمط وعبدان، فى سنة ٢٨٠هـ، آل أمر الدعوة بالعراق إلى زكرويه بن مهروبة فى الشمال وإلى ابن سعيد الحسين بن بهرام الجنابى فى الجنوب.

عند هذا الحد اقترفت الدعوة عن سائر الإسماعيلية، وأصبح لها خط مستقل عنها، لذلك سوف نجتنب وصفها بالإسماعيلية وندعو أصحابها بالقرامطة فحسب.

ب - أسباب الثورة ومقدماتها:

لخص النويرى فى كتابه نهاية الأرب السباب العامة للثورة الجديدة فى عبارة مقتضية فيقول "تشاحن السلطان وخراب العراق وفساد البلدان فتمكن الدعاة ومن تبعهم لهذا السبب، وبسطوا أيديهم فى البلاد وعلت كلمتهم".

يعنى النويرى بذلك أن المشكلات الاجتماعية، قد تفاقمت هذه المرة وأتسع مداها لتجاوز العبيد - الذين كانوا الكتلة الأساسية فى ثورة الزنج - إلى غيرهم من الأحرار من أكراد وجفاة الأعاجم وجفاة العرب - حسب تعبير الطبرى - ويقصد بجفاة هنا الطبقات الدنيا من الشعب.

ساءت حال هذه الطبقات، بسبب نظام الإقطاع العسكرى الذى اختص به

الأتراك، وما صاحبه من مكوس وضرائب غير شرعية وفساد فى عملة اختل وزنها.

يشير مسكويه إلى أن بيت المال عجز عن أعطيات الجند فمنحوا إقطاعات يرتزقون منها ولما لم تكن لهؤلاء الجند، دراية وافرة بشئون المال، فأنهم أوكلوها إلى جباة متخصصين تعسفوا مع الناس.

امتد إقطاع فشمل على جانب الأجناد طبقة أخرى من كبار رجال الدولة، اشتروا بعض ما كان لأنباء البيت العباسى من أرض دعيت بالصوافى.

اتسع مجال الإقطاع باتساع مجال الإلجاء، وهو أن يلجئ صغار الملاك أراضيهم إلى كبارهم، ومعنى يلجئ هنا أن تسجل هذه الأراضى فى الديوان بأسماء كبار الملاك فيتمتع صغارهم بحمايتهم نظير مال يؤديه إليهم، وشيئا فشيئا وضع كبار الملاك أياديهم على هذه الأراضى، وتحول أصحابها الأصليون إلى مجرد فلاحين.

أدى ذلك - كما يقول مسكويه - إلى أن "فسدت المشارب وبطلت المصالح، . . . فأتت الحوائج على التناء (الزراع) ورقت أحوالهم. . . وصاروا بين هارب حال، وبين مظلوم صابر لا ينصف وبين مستريح على تسليم ضيعته إلى المقطع ليأمن شره".

كان من يترك الريف، ويهبط إلى المدينة يتعرض لاستغلال أصحاب الأعمال وشرهم، مما اضطر معه الصناع إلى أن يترابطوا معا فى مجموعة من طوائف الحرف، لكل واحدة منها رئيس يعرف بالأستاذ، ولما كانت الحرف تتجمع عادة فى مكان معين من المدينة فقد جرى نوع من الترابط بين هذه الطوائف بعضها وبعض أى صاروا إلى حرما جبهة بإزاء الأجناد.

كان ذلك ينتظر من يفجر ثورة.

وكان ذلك من شأن القرامطة.

ج - الدعوة القرمطية:

يفترق القرامطة عن غيرهم من الإسماعيلية باهتمامهم بالجانب الاجتماعى اهتماما فائقا، ولم يكن الجانب العقائدى يشغلهم كثيرا، مما أدى فيما بعد غلى مخاصمتهم للإسماعيلية، بل والحرب ضدهم من ناحية والالتقاء بالعباسيين من ناحية أخرى.

تسربت إلى القرامطة أفكار يمكن أن ندعوها اشتراكية، وحين دانت لهم بعض المدن القريبة من الكوفة، جعل الناس يضعون أموالهم فى موضوع واحد، ويعيشون كأسرة واحدة واستعانوا على ذلك بتأويل بعض آيات القرآن الكريم وأصبح بكل قرية رجل من ثقافتها تجمع عنده أموال القرية من بقر وغنم وحلى ومتاع، فكان يكسوا عاريهم وينفق عليهم ما يكفيهم، ولا يبقى فقيرا بينهم ولا محتاجا، ولا ضعيفا وشجع الصناع على الاهتمام بصناعتهم وكانت المرأة تجمع إليه كسبها من مغزلها والصبى أجر نظارته للطير، فلا يملك أحد منهم إلا سفيه وسلاحه.

تستطرد الرواية التى يذكرها النويرى فتقول "فلما استقام له ذلك كله وصبوا إليه وعملوا به، أمر الدعاة أن يجمعوا النساء ذات ليلة معروفة ويختلطن بالرجال. وقال أن ذلك من صحة الود والألفة بينهم".

لانستطيع أن نتقبل هذه العبارة الأخيرة كما هى، فلبس لدينا ما يدل على أنهم مارسوا أشياء مثل تلك، ولدينا من الأخبار ما يدل على أنهم حرصوا على الصلاة والحج، بل أن القرامطة كتبوا على ألويتهم آيات من القرآن.

الشىء الوحيد الثابت على القرامطة أنهم فى بعض حروبهم اقتحموا الكعبة واستولوا على الحجر الأسود، ونقلوه إلى قاعدتهم فى البحرين، وبطبيعة الحال لا يرضى مسلم صادق فى إسلامه عن فعل مثل ذلك، على أن الأمويين سبقوا القرامطة فضربوا الكعبة بالمنجنيق، ثم أن القرامطة رفضوا إغراء العباسيين بأن يعيدوا الحجر الأسود على مكانه لقاء مبلغ كبير من المال، وأعادوه بعد ذلك دون مقابل.

المرجع لدينا أن الخصومات السياسية، كانت وراء التهم العقائدية التى أصابت القرامطة.

والثابت لدينا أن دعاوى القرامطة الاجتماعية وراء هذه الخصومات السياسية ولدينا مثال على ذلك مما يرويه ابن الأثير من أن على بن عيسى بن الجراح وزير المقتدر - وكان واسع الثراء - سأل أحد القرامطة عندما وقع فى يديه لماذا صار قرمطيا أجابه «لما صح عندى أنه على حق وأنت وصحابك - أى الخليفة - كفار تأخذون ما ليس لكم».

ابتدأت دعوة القرامطة فى جنوب العراق واستفاد أصحابها من التناقضات الاجتماعية الصارخة هناك، وإذا كان صاحب الزنج قد اعتمد على العبيد بالدرجة الأولى، وجعل مجال حركته داخل الأرياف فإن القرامطة اعتمدوا على العبيد وغيرهم من الأحرار، أفادوا من نظام الطوائف الحرف التى صارت أشبه بخلايا ثورية وصار الأساتذة دعاة لهم، لذلك ذهب البعض إلى أن النقابات الإسلامية، أسست بفضل القرامطة.

تأثر القرامطة فى بنائهم التنظيمى بصابئة العراق وتمرسهم بعلم الفلك، فبعد أن كان الإسماعيلية يجعلون مراتب الدعوة تسعًا، جعلها زعيم القرامطة سبعة وجعل نفسه داعية مطلقا، أى أنه ليس نائبا عن الإمام، وإنما هو يدعو إلى نفسه.

لا يبعد أيضا تأثر القرامطة ببعض الأفكار اليونانية الخاصة بتقسيم المجتمع تقسيما دقيقا إلى حكام وحراس ومنتجين، فكان لهم رئيس يسترشد بجماعة من أهل الشورى أى أهل الحل والعقد، أما الحراس فهم جماعة عسكرية ينشئون تنشئة خاصة فيذكر المقريزى أن المقاتلة بالإحساء بلغوا عشرين ألفًا مستعدين للفداء أما المنتجون فيذكرنا ناصر خسرو أنهم كانوا ثلاثين ألفا بالمنطقة نفسها، يعملون بالزراعة وفلاحة البساتين، وأن الصناع كانت تنتظمهم جماعات متخصصة، تقدم العون لكل منهم حتى يصلح من شأنه.

د - الثورة:

سعى زكرويه زعيم قرامطة العراق إلى نشر الدعوة فى بلاد الشام وحاصر ولده يحيى دمشق فى سنة ٢٨٩هـ، فلما قتل على بابها انتقل الأمر إلى أخيه الحسين فقتله محمد بن سليمان الكاتب قائد الخليفة العباسى المكتفى بعد سنتين، فخرج زكرويه منتقمًا لمقتل ولديه فلاقى مصيرهما فى سنة ٢٤٩هـ.

انتهى أمر قرامطة العراق، لتتحول الزعامة إلى قرامطة البحرين وابن سعيد الحسين بن بهرام الجنابى.

توجد أبو سعيد إلى البحرين سنة ٢٨٣هـ، فوجد صدى لدعوته من الأعراب، واستطاع أن يدخل هجر وهى عاصمتها، لكنه جعل الإحساء عاصمة له فى سنة ٢٨٦هـ.

أرسل الخليفة المعتضد جيشا بقيادة العباس بن عمرو السفنوى فى سنة ٢٨٩هـ، فلقى هزيمة كبيرة، وبذا استطاع أبو سعيد يمتد بجنود دولته فشملت هجر والبحرين والإحساء والقطيف وعندما مات فى سنة ٣٠٢هـ، خلفه ولده سعيد الذى خرج عليه أخوه أبو طاهر سليمان وولى مكانه.

انحاز أبو طاهر إلى الدولة الفاطمية البازغة فى بلاد المغرب، واعترف بالسيادة الاسمية لها، وزحف بجيشه على البصرة والكوفة وتقدم فى سنة ٣١٦هـ إلى بغداد نفسها وكادت تسقط فى يديه، لولا تصدى مؤنس الخادم قائد الخليفة المقتدر له.

فى العالم التالى هاجم أبو طاهر مكة، وأقام الخطبة لعبيد الله المهدى، وعاد إلى الإحساء ومعه الحجر الأسود.

أثر ما فعله أبو طاهر استياء عبيد الله المهدى، وأرسل إليه كتابًا يؤنبه فيه على فعلته تلك ويلعنه.

فى سنة ٣٣٢هـ مات أبو طاهر، وخلفه أخوه أحمد فأعاد الحجر الأسود إلى مكانه فى الكعبة سنة ٣٣٩هـ، وكان أبو طاهر قد رفض إعادته فى مقابل خمسين ألف دينار يعطيها له الخليفة العباسى.

فى سنة ٣٥٩ مات أحمد وخلفه ولده الحسن الذى تلقب بالأعصم فتعسف مع بنى عمه أبى طاهر - وكانوا موالين للفاطميين - ولم يلبث أن أقام الخطبة فى مكة للخليفة العباس المطيع.

تدهورت العلاقات بين القرامطة وبين الفاطميين بعد استيلاء الآخرين على دمشق فى سنة٣٥٩هـ، فقد طالبهم الأعصم بالأتاوة التى كان يؤديها إليهم الإخشيديون فلما رفضوا أمر بحذف اسم المعز الدين الله من الخطبة، وبعث يطلب عون العباسيين فلبى عز الدولة بختيار البويهى طلبه، وأيده الحمدانيون بالموصل، فكتب الأعصم على رايات الجيش المتوجه إلى دمشق عبارة «السادة الراجعون إلى الحق».

استولى القرامطة على دمشق سنة ٣٦٠ وقتلوا جعفر بن فلاح الكتامى قائد الفاطميين، وأقاموا الدعوة على مساجدها للخليفة العباسى، واستولى بعد ذلك على الرملة.

سار الأعصم إلى مصر فاستولى على القلزم ثم عين شمس وفى سنة ٣٦١هـ، حاصر القاهرة التى حفر جوهر القائد خندقًا حولها، فلما فشل القرامطة فى اقتحام هذا الخندق اسنحبوا.

بعد انتقال المعز لدين الله من المغرب إلى مصر فى سنة ٣٦١ أرسل إلى الأعصم كتابا مطولا تراوحت لهجته بين الشدة وبين اللين، ورغبة فى الطاعة، فرد عليه الأعصم بعبارة مختصرة «وصل كتابك الذى قل تحصليه وكثر تفصيله، ونحن سائرون إليك على أثره والسلام».

زحف الأعصم إلى مصر مرة ثانية فى سنة ٣٦٣ وعسكرت قواته قرب الخندق، فاستعان المصريون برشوة بعض خلفاء القرامطة من قبائل طئ، مما أسفر عن هزيمتهم وارتداد الأعصم إلى الشام، وعاد إدراجه إلى الإحساء، ولم يلبث الفاطميون أن استردوا دمشق.

تجدد الصدام بين القرامطة وبين الفاطميين فى سنة ٣٦٥ عندما ثار أحد

القـادة الأتراك بدمشق وأرسل هذا القـائد ويدعى أفـتكين يطلب عون الأعـصم، الأمر الـذى اضطر معـه جوهر القـائد على رفع الحصـار عن دمشق والعـودة إلى مصـر، على أن الخليفة العـزيز بالله سار إلى الشام بنفـسه فى سنة ٣٦٧هـ، ودار قتال عند الرملة، أسفر عن انهزام أفتكين، وانسحاب الأعصم إلى الإحساء.

وإذا كان القـرامطة قد غزوا الشـام ومصر، فإنهم لم يغـمضوا عـيونهم عن العراق، فأصابوه ببعض غزواتهم، مـثل غزوهم الكوفة فى سنة ٣٧٥ فتصدى لهم البويهيون وطردوهم.

بعـد وفاة الحـسن الأعـصم فى سنة ٣٦٧ عـادت الخـلافات داخل الأسـرة الحاكمة، حـتى استقر الأمر على أن يتولى الحكم ستة من السـادة عاودا الاعتراف بالخلافات الفاطمية.

فى أواخر القـرن الرابع تلقص نفوذ القـرامطة، ولم يتبق لهم سوى سـاحة صغيرة على شاطئ الخليج وانتهى أمرهم فى سنة ٣٨٩ بأن استولى الأصغر بن أبى الحسن الثعلبى على دولتهم، وملك الإحساء منهم ودعا للخليفة العباسى الطائع.

***